المدن والمراكز الحضارية بالسوس

(٦٦٨-١٠٨١هـ / ١٢٦٩- ١٦٧٠م)

أطروحة دكتوراه غير منشورة
إعداد الباحث: عبد الباسط المستعين
جامعة سيدي محمد بن عبد الله (المغرب)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سايس - فاس ٢٠٠٩
إشراف: الدكتورة ماجدة كريمي
نال الباحث درجة الدكتوراه بميزة مشرف جدا

عرض

عبد الباسط المستعين
كاتب وباحث في تاريخ المدينة المغربية
المملكة المغربية
abdelbasset73@yahoo.fr

تندرج هذه الأطروحة في إطار الدراسات المونوغرافية الهادفة إلى تسليط الضوء على السوس (منطقة تقع جنوب جبال الأطلس الكبير بالمغرب كانت لها أهمية خاصة في تاريخ المغرب الأقصى) باعتبار تاريخها الأكثر إثارة من بين جهات المغرب و افتقارها إلى الدراسات الحضرية الكافية خاصة في الحقب الخالية. لذلك تناولت الدراسة كل ما يرتبط بمدنها ومراكزها من قضايا خلال الحقبة المنحصرة بين فترتي حكم المرينيين والسعديين. فما هي الدوافع التي كانت وراء هذا الاختيار؟

دواعي اختيار الموضوع

من الدوافع التي كانت وراء الاهتمام بهذا الموضوع ما يلي:

- خصوصية الجنوب المغربي عامة و السوس خاصة التي تجلت في الانفراد ببعض التطورات الخاصة سياسيا واقتصاديا وحتى اجتماعيا مما يولد الفضول للكشف عن العوامل الواقفة وراء هذه الظاهرة وأسبابها المباشرة وغير المباشرة ، القريبة والبعيدة ، الداخلية والخارجية ، الذاتية والموضوعية.
- المكانة التي تبوأتها منطقة السوس باستمرار ، مكانة لم تشمل جانبا دون آخر ، وهي متميزة ، إن على المستوى الطبيعي حيث الغنى والتنوع الذي يجمع بين مؤهلات السهل والجبل والصحراء والبحر ، مما لا يجتمع في منطقة غيرها بالمغرب الأقصى ، أو الاقتصادي حيث تعدد الموارد الفلاحية والمعدنية والحرفية فضلا عن الأهمية التجارية ، أو الاستراتيجي إذ شكلت المنطقة عبر العصور محط تنافس سياسي وعسكري كبير .
- الاضطراب المصدري اللافت ، حيث تتوفر المعلومات في إحدى المجالات المرتبطة بالسوس إلى حد الملل ، وتندر في أخرى لحد الاستغراب ، كما تتواطأ لحد التواتر وتتباين لدرجة التناقض ، مما يجعل الخوض في سبيل الكشف عن حقيقتها يتميز بطابع الجدة والتشويق.
- فقر المادة المرجعية المرتبطة بالظاهرة الحضرية بالسوس. فبقدر ما تتعدد الدراسات المنجزة حولها بقدر ما يندر الاهتمام بمدنها ومراكزها حيث ما زالت في حاجة إلى جهود كبرى لتغطية كل المجال السوسي وفي جميع المراحل التاريخية.

و قد شملت هذه الدراسة كل التجمعات الحضرية والشبيهة في السوس ، من مدن و مراكز ، نظرا لصعوبة تحديد مواصفات دقيقة للمدينة في الإطار الزمني المدروس الذي يتراوح بين سنة ٦٦٨هـ-١٢٦٩م ، وهو تاريخ سقوط مراكش بيد المرينيين ، أي تاريخ التأسيس الفعلي لهذه الدولة بعد القضاء على آخر معالم الحكم الموحدي ، ثم سنة ١٠٨١هـ- ١٦٧٠م ، تاريخ سقوط إيليغ بيد الدولة العلوية وانتهاء الإمارة السملالية بالسوس. ولا يخفى ما لهذه الحقبة من أهمية خاصة ، فهي حبلى بالمتغيرات ، وكانت مخالفة إلى حد كبير لما سبقها ، على مستوى حجم التطورات التي عاشها المغرب برمته وانعكاساتها على المنطقة ، وكذلك التطورات الحاسمة التي عاشتها السوس وكان لها أثر واضح على مجموع البلاد.

منهج البحث

أثناء تناول قضايا هذا الموضوع ، تم اعتماد مختلف أدوات المنهج التاريخي من وصف واستقراء ثم تحليل وتفسير فاستنتاج وتعميم بناء على ما توفره المادة المصدرية من معطيات دون إلغاء حق التدخل وإعمال النقد والتفكيك مع توخي مقتضيات المناهج العلمية من موضوعية وتجرد في معالجة كل القضايا الشائكة.

كما اقتضت طبيعة إشكالية الدراسة أن يتم تناول الموضوع على شكل قضايا مستقلة ، تفاديا لرتابة المعالجة الكرنولوجية ، وقد استحضر العامل الزمني أثناء دراسة كل قضية على حدة مع إبراز انعكاساته على الظواهر المدروسة.

وفي حالة اختلاف المعلومات المصدرية وآراء الدارسين والمهتمين حول قضية معينة ، فإن عرض تلك الآراء المختلفة يكون من منطلق صحة كل الفرضيات قبل تحليلها وتمحيصها واستخلاص حكم معين أو الترجيح بين الآراء المتضاربة في حالة غياب الأدلة الكافية والحجج المقنعة مع إعمال المنطق العقلاني في تدعيم الرأي أو تفنيده .

ومن تم فإن مهمة البحث لم يقتصر على حشد الشواهد المصدرية والمرجعية ، بل تعدت ذلك إلى تقييم تلك النصوص واستخلاص الموقف الشخصي المناسب الذي لا يتقاطع أو يختلف بالضرورة مع مضمون النصوص التاريخية.

لقد أنبنى المنهج الذي ارتكزت عليه هذه الدراسة على ثلاثة عناصر أساسية:

أولا : وصف الظاهرة المدروسة وتناولها بالجرد والترتيب والتصنيف حتى يسهل التعرف على حدود التطور الحاصل بالمدن والمراكز السوسية في الحقبة المذكورة ورصد كل المعطيات المرتبطة بها طبيعيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسياً.

ثانيا: تحليل العوامل المحددة لنوعية التطور الذي شهدته هذه المراكز الحضرية وتفسيرها.

ثالثا: إعادة تركيب عناصر التحليل للخروج بخلاصات عامة في موضوع الدراسة.

وهذه العناصر ليست متتالية في الموضوع وإنما موزعة بكل فصول الدراسة.

المضامين الكبرى للأطروحة

لقد أفضت أعمال البحث إلى تناول الموضوع عبر ثلاثة أبواب وتسعة فصول واثنين وعشرين مبحثا.

تم التمهيد لهذه الدراسة بتوضيح الإطار التاريخي العام الذي عاش المغرب الأقصى وضمنه السوس ومحيطهما الدولي في ظله ، وتبين أن الحقبة المدروسة مثلت منعطفا حاسما ساهم في انحراف المسار الحضاري والحضري للبلاد التي تحولت من مركز القوة و الريادة على المستوى السياسي والعسكري إلى محط أطماع قوى قريبة تتربص بها وتتحين الفرص للانقضاض على أطرافها. حيث عاش المغرب الأقصى ابتداء من الشطر الثاني من عصر بني مرين معادلة معكوسة تماما مع الأقطار الأروبية. ففي الوقت الذي شرعت فيه تلك الدول في استجماع قواها والتفوق في الميادين العلمية والصناعية والبحرية ، والتكتل السياسي ، كان المغرب ينحدر بسرعة نحو التجزئة والضعف السياسي والاضطراب الاجتماعي والانكماش الاقتصادي والتراجع العلمي ، وقد شكلت هذه الظروف مناسبة غير قابلة للتفويت استغلت بشكل جيد من قبل الممالك الإيبيرية المتعاظمة باستمرار والمزهوة بالنجاحات الباهرة التي حققتها عسكريا وسياسيا ، وفي ميدان الكشوف وامتطاء البحار ، فساهمت الأحقاد التاريخية والنزعة الصليبية وتحول ميزان القوة لصالحها في التكالب على مدن الواجهات البحرية المغربية ، وأصبح المغرب لأول مرة منذ نهاية الوجود الروماني في مواجهة إحدى أخطر التحديات التي صارت تهدد كيانه ووجوده .

في هذا السياق التاريخي الذي انقلبت فيه أوضاع البلاد من الصولة الخارجية إلى المعاناة من احتلال جل الثغور الساحلية بالمغرب الأقصى على امتداد الشواطئ المتوسطية والأطلسية ، تطلعت الدراسة إلى كشف نوع التطور والتأثير الحاصل على مدن ومراكز السوس التي كان طبيعيا أن يصلها صدى هذه التحولات.

بعد ذلك خصص المبحث الثاني من الفصل التمهيدي لمحاولة رسم الإطار الجغرافي للدراسة و مناقشة كافة الإشكالات التي يطرحها تحديد المجال السوسي في ظل تباين وتناقض المعلومات المصدرية واختلاف آراء الدارسين ، و مكن تمحيص الروايات المصدرية من رصد تطور استعمال مفردات: السوس و السوس الأدنى ثم السوس الأقصى ، كما تم الوقوف على الأخطاء التي انزلقت إليها بعض الدراسات نتيجة عدم الانتباه إلى الخلط الحاصل في العديد من معلومات المصادر بين مواقع كثيرة تحمل اسم السوس سواء في المشرق أو إفريقية أو المغرب الأقصى ، و الانتهاء إلى وضع إطار تقريبي لحدود المجال السوسي منحصرة بين جبال الأطلس شمالا مع اعتبار واجهتها الجنوبية جزء لا يتجزأ من السوس ، ثم منطقة درعة شرقا ، ونول جنوبا مع استحضار التمدد المتواصل للحدود الجنوبية بمرور الوقت ، فالمحيط الأطلسي غربا.

بعد المدخلين: التاريخي والجغرافي ، الضروريين لتأطير الموضوع زمنيا و مجاليا ، خصصنا الباب الأول لتشريح جزء من الإشكالية العامة مرتبط بدراسة الجوانب العامة المحددة لمسار التطور في مدن ومراكز السوس ، وتناول في البداية إشكالية مفهوم المدينة وما يطرحه من جدل واسع ، وتداخل مع غيره من المفاهيم ، كالقرية والكفر والقصبة و الكورة والقصر وغيرها ، ليتم استخلاص محددات خاصة للمدن رغم طابعها النسبي ، مع توسيع مجال الموضوع ليشمل بعض المراكز التي لا ترقى إلى مصاف الحواضر لكنها بناء على المعايير الحضرية تعتبر أقرب إليها مما سواها. وبعد ذلك تم تناول إشكالية أسماء مدن ومراكز السوس على مستوى صيغها وأصولها و دلالاتها ، خلص إلى أن بعضها مغرق في القدم ، غامض في معانيه دون إلغاء بعض المقاربات الافتراضية ، و الوقوف على هيمنة التسميات ذات الأصول الأمازيغية كانعكاس طبيعي للمكونات الإثنية ، مع تسجيل بداية التأثير العربي والأوربي في هذه الأسماء منذ القرن الثالث عشر و الخامس عشر الميلادي على التوالي. ثم انتقلت الدراسة إلى تناول إشكالية مواقع ومواضع المدن والمراكز السوسية ، كلا على حدة ، قادت إلى تحديد على أربعة أصناف من هذه المواقع هي: الكتلة الشمالية والشريط الشمال شرقي والجزء الجنوبي ثم المنطقة الوسطى ، وأربعة أصناف كذلك من المواضع ، هي: المواضع السهلية والجبلية ثم الساحلية فمواضع النطاق الجاف وشبه الصحراوي ، وقد تبين من خلال ذلك مدى الأهمية القصوى لهذين العنصرين في مسار المراكز الحضرية بالسوس ، غير أن تأثيرها لا يستقل عن عدة عوامل أخرى.

وبعد ذلك تمت دراسة التركيب الإثني والاجتماعي لهذه المدن والمراكز حيث تبين مدى غناها التاريخي من حيث العناصر الإثنية ما بين عبريين وزنوج وحراطين وأندلسيين و أتراك وأروبيين ، غير أن الأمازيغ شكلوا أهم هذه المكونات ، يليهم العرب ،خاصة ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي. كما تم الوقوف على تباين الفئات الاجتماعية المكونة لساكنة هذه المراكز ما بين فئات ذات مكانة اجتماعية مرموقة ضمت من جهة رموز السلطة الذين اكتسبوا الثروة والجاه بفضل مسؤولياتهم القيادية في الإدارة أو الجيش ، ومن جهة ثانية العلماء والصلحاء والشرفاء الذين مارسوا ثقلا روحيا يضاهي الفئة السابقة. وفئة وسطى ضمت شرائح اجتماعية مختلفة ، ثم الفئات الدنيا التي تمثلت في العبيد والخدم والأسرى. وإلى جانب ذلك رامت الدراسة تشكيل صورة حول وضعية النساء والأطفال بهذا المجتمع الحضري ، ووقفت على مساهمتهما المتواضعة في رسم أحداث المنطقة إلا أنهما كانا أكبر و أهون ضحايا النزاعات و الحروب.

وقد خُتم الباب الأول بمعالجة إشكالية نشأة المدن والمراكز السوسية ثم مسارات تطورها. و مكنت هذه الخطوة من تقسيم المدن من حيث نشأتها إلى صنف قديم يصعب تحديد زمن نشأته و الجهة المؤسسة له ، أو نشأ في الحقبة الإسلامية السابقة عن فترة الدراسة ، وصنف ثان ارتبط بالمدن والمراكز المستحدثة خلال الحقبة المدروسة والتي تم التمييز ضمنها بين المراكز الأجنبية ذات الصلة بالاحتلال ، والمراكز المحلية ؛ واتضح أن هناك اختلاف حول تاريخ تأسيس معظمها وأحيانا حتى حول المؤسس ، كما تم تتبع المسار المتعرج والمضطرب لنموها بالفصل بين مراكز الحقبة السابقة عن الاحتلال الإيبيري لمراكز السوس(سنة ١٤٧٦م) و الحقبة الموالية لها.

أما الباب الثاني من هذه الدراسة فقد خصص لرصد الوظائف والأنشطة التي قامت بها هذه المراكز وشبكة علاقتها ، وقسمت إلى ثلاث وظائف رئيسية إلى ، هي: الوظائف الإدارية والعسكرية البارزة من خلال العواصم الإقليمية والمحلية ذات العلاقة بالدول الحاكمة والإمارات السوسية ، أو بالبطون القبلية الكبرى و أهمها حاضرة السوس

و حاضرة نول و حاضرة جزولة و حاضرة تازروالت و حاضرة طاطا. وكذلك الحصون العسكرية سواء منها المنفردة أو المرتبطة ببعض المدن أو الأجنبية المرتبطة بالاحتلال ، ثم الوظائف الاقتصادية المتعددة ، الشاملة للأنشطة المنجمية والحرفية والفلاحية والتجارية الدالة على تنوع و أهمية الأسس الاقتصادية للمراكز السوسية ، إضافة إلى الوظائف الدينية التي قامت بها الرباطات والزوايا والمساجد والمدارس والتي كان حضورها متميزا بالعديد من مدن السوس. وخصص الفصل الثاني من هذا الباب إلى العلاقات المتعددة الأبعاد للمدن والمراكز السوسية سواء على مستوى علاقتها بمحيطها القبلي التي تباينت من حيث نوعيتها بين علاقة سلم وتعاون ، وعلاقة حرب ومواجهة ، دون إلغاء للمصالح بين الطرفين ، ومن حيث مجالاتها التي شملت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية الشديدة الصلة بهذه المراكز ثم العلاقات السياسية والعسكرية. وكذلك على مستوى علاقتها بالمخزن التي اتخذت ثلاث صور أساسية هي: علاقة الخضوع والولاء الطوعي منه و الإجباري ، الناجمة عن قوة الدولة المركزية ، وعلاقة التمرد التي ميزت فترات طويلة و متقطعة من تاريخ السوس ، ثم حالة القطيعة مع الدول الحاكمة بالمغرب والتي ارتبطت في الغالب بأوقات ضعف السلطات المركزية أو انشغالها بالنزاع بين الأمراء حول العرش. كما تم رصد علاقة المدن والمراكز السوسية بالعالم الإسلامي التي تعود جذورها إلى مراحل قديمة لكنها تتغير حسب الظروف المحلية والإقليمية ، و علاقة هذه المراكز مع أروبا المتراوحة بين الاصطدام المميز لحقبة الاحتلال البرتغالي والقشتالي ، ثم روابط الحماية مع هذه الدول في فترات معينة وكذا الروابط التجارية المتزايدة مع مرور الوقت ، و المتسعة لتشمل عدة بلدان أروبية.

أما الباب الثالث فقد تناول المميزات العمرانية والمعمارية لمراكز السوس وكذا العوامل المؤثرة فيها ، حيث تمت دراسة طابعها الحضري عبر محاولة إسقاط أربعة معايير أساسية لتمييز الحواضر عما سواها على مدن ومراكز السوس ، وهي: ارتفاع الكثافة السكانية والدور القيادي للمدينة باعتبارها مقر السلطة الحاكمة والقضاء وكل رموز الدولة ، وأهمية السوق والنشاط التجاري ، بالإضافة إلى هيمنة الأنشطة غير الفلاحية ، و هذه المعايير تتوفر بنسب متفاوتة في جل المراكز السوسية ، باستثناء الأنشطة الفلاحية التي شكلت حيزا مهما من اهتمامات جل المدن و المراكز السوسية شأنها في ذلك شأن معظم مدن ذلك العصر. و بعد ذلك تناولت الدراسة مميزات البنية الداخلية لهذه المراكز عبر رصد أهم المعالم الدالة على غناها بالمرافق الكبرى والأساسية ، سواء منها المرافق الاقتصادية من أسواق و معاصر ودور الدباغة و المحلات التجارية و الفنادق و دور السكة... أوالمرافق الدينية مثل المساجد و الزوايا و المدارس و الكنائس... أوالمرافق المدنية من شوارع و دور و ملاحات وأبواب...أوالمرافق العسكرية من أسوار وحصون وأبراج و غيرها.

ثم خصص الفصل الثاني من هذا الباب لفن العمارة بالسوس ، واستهل بإطلالة على أهم الأنماط العمرانية المشكلة لمراكز السوس والتي تجلت في المدن الجامعة ، أي المكونة من نسيج عمراني موحد ، وظاهرة الكتل المنفصلة التي تألفت منها المدينة الواحدة ،حيث تضم السوس مراكز مؤلفة من عدة وحدات عمرانية مستقلة بأسوارها الخاصة ، ثم الحصون المختلفة والمتنوعة بين حصون "رسمية" يعود إنشاؤها إلى الدول المركزية ، وأخرى خاصة بالثوار يلجئون إليها لاتقاء الحملات المخزنية ، والحصون المدنية التي لم تضطلع بأي دور عسكري ، وحصون الاحتلال الإيبيري ، ثم القصبات والقصور داخل المدن.

و تم التطرق أيضا إلى مواد البناء المتنوعة و تقنياته بين التراب المستخدم في بناءات الطابية و صناعة الطوب و الآجر ، والحجر والخشب وغيرها ، ثم العناصر الزخرفية التي تفاعلت فيها عدة مكونات حضارية ، فبقدر ما جسدت بعض الخصوصيات المحلية العريقة بقدر ما تأثرت بعناصر فنية خارجية ، أندلسية و مشرقية و صحراوية وأوربية ، وكان لها أيضا إشعاع خارج السوس ، و استمرت الفنون المعمارية بالسوس في التطور الداخلي و التفاعل الخارجي عبر مختلف الحقب.

أما الفصل الأخير من هذا الباب فقد انصب على تحليل العوامل الفاعلة في الظاهرة الحضرية بالسوس من خلال استنباط العوامل الإيجابية التي أثرت فيها و التي تباينت بين ما هو طبيعي مرتبط بتعدد مؤهلات الوسط الطبيعي بالسوس ، إن على مستوى إيجابيات مواقع ومواضع المراكز ، أو أهمية الموارد المائية وتنوع المنتجات الفلاحية خاصة في القسم السهلي الشمالي ، أو وفرة الثروات المعدنية. ومنها ما هو اقتصادي يكمن في تعدد الصنائع والأنشطة الحرفية بالمراكز السوسية على مر العصور. ومنها ما هو سياسي يتعلق بإقرار الأمن وتوفير الاستقرار خاصة في فترات قوة الدولة الحاكمة.ومن ثم استفادت المراكز السوسية كثيرا من الغنى الطبيعي ومن فترات الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي.

وبالمقابل كانت هناك عوامل سلبية عرقلت نمو المراكز وساهمت كثيرا في تعطيل مسيرتها. وأهمها غياب الاستقرار السياسي و تعاقب الثورات والحملات المخزنية المضادة ، إضافة إلى التوتر الاجتماعي من خلال الصراعات القبلية حول مصادر الماء والمراعي ، ثم الكوارث الطبيعية التي كان للسوس منها نصيب وافر. وقد أثرت هذه العوامل وغيرها بشكل سلبي على العمران البشري بمراكز السوس.

أهم الاستنتاجات

بعدما الوقوف مع جوانب شتى ذات الصلة بمدن و مراكز السوس من أواخر القرن ٧هـ / ١٣م إلى أواخر القرن ١١هـ / ١٧م ، وبسط مختلف القضايا التي ترتبط بها ، يبدو أنها ما زالت بحاجة إلى تذييل يلخص جملة النتائج المتوصل إليها و يبسط أهم الاستنتاجات و الآفاق التي تفتحت جراء ذلك. و فيما يلي الخطوط العريضة لنتائج هذه الأطروحة:

- كشف النقاب عن دلالة مصطلح السوس و ضبط نطاقه الجغرافي. فمن خلال ما تأتى من معلومات مصدرية و دراسات حديثة ، تمت مناقشة مسار تطور استعمال هذا المصطلح الذي تغير حسب الحقب و انتهى إلى الانحصار في المنطقة المخصوصة بالدراسة خلال الحقبة المحددة. و تم استخلاص معالم حدود السوس من الجهات الأربع مع استحضار التغيير الذي يطالها مع مرور الزمن خاصة من جهة الجنوب حيث ظلت في تمدد مستمر نحو أعماق الصحراء.
- إثبات نسبية الظاهرة الحضرية المتسمة بالتداخل مع غيرها خاصة الحصون والقرى و غيرها ، وتباين مفهومها حسب الظرفين الزماني

و المكاني ، و من ثم صعوبة تحصيل إجماع الباحثين حول تقديم تعريف موحد للمدينة.

- تقصي أصول و دلالات أسماء المدن و المراكز السوسية المعبرة عن جذور الظاهرة المدينية بالمنطقة وعمقها الأمازيغي مع تأثرها بما استجد من عناصر فاعلة ارتباطا بوصول القبائل العربية والتدخل الإيبيري.
- كشف أهم جوانب القوة و الضعف في خصائص مواقع ومواضع مختلف المراكز الحضرية السوسية وتصنيفها إلى مجموعات متقاربة من حيث هذه المميزات.
- إبراز الثراء العرقي و التنوع الثقافي و الديني لساكنة مدن و مراكز السوس مع إبراز سياق أهم التحولات الاجتماعية التي شهدتها.
- استجلاء واقع مختلف فئات المجتمع الحضري بالسوس.
- رصد مستوى النمو الحضري وعملية استحداث المدن و المراكز بالسوس وتتبع أهم التطورات التي عاشتها كل هذه التجمعات الحضرية خلال الحقبة المدروسة في ارتباط وتفاعل مع التحولات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي ميزت المنطقة في محاولة لاستخلاص الخريطة الحضرية للسوس.
- دراسة وظائف مدن و مراكز السوس باعتبارها السبب الأساس لاستمرارها و نمائها.
- تحليل علاقة المراكز السوسية بمحيطها المتشعب من أجل فهم انعكاسات ذلك سلبا و إيجابا على هذه المراكز.
- مناقشة الخصائص الحضرية لمدن و مراكز السوس وعرضها على المعايير الحديثة لتصنيف الحواضر و بيان نصيبها منها واستخلاص حدود انطباقها عليها.
- رصد البنيات الداخلية و المرافق الكبرى لمراكز السوس مصنفة حسب وظائفها باعتبار هذه المؤسسات من مميزات الوسط الحضري.
- تصنيف الأنماط العمرانية لمراكز السوس من أجل الوقوف على الغنى و التنوع المميز للملامح الخارجية لهذه التجمعات الحضرية.
- دراسة مواد البناء وفنون العمارة من أجل استخلاص حدود التأثير و التأثر في هذا المجال.
- بيان و تحليل العوامل الفاعلة في مدن و مراكز السوس للتعرف على مصادر التأثير السلبي وعوامل النماء والازدهار.

هذه أهم الفوائد لا تكتمل صورتها إلا إذا تعززت بخلاصات إضافية عبارة عن استنتاجات كبرى تولدت عن هذا العمل وأيضا كقضايا جديدة تفتح آفاقا رحبة للبحث و تدعو الضرورة لاستيفاء حقها ، إلى أن تفرد بالدراسة من أجل تناولها بعمق و دقة أكبر ، وهي كالآتي:

على المستوى السياسي

- تجربة الإمارات المحلية(بنو يدر-الحاحيون .السملاليون...) تحتاج إلى تناول تحليلي خاص يسلط الضوء على أبعادها ونتائجها و دوافعها ، خاصة وأن عدة مؤشرات تبين أن تشكيل هذه الإمارات لم يكن بدافع الاستقلال بقدر ما كان نوعا من رد الفعل تجاه ما كان يحصل من اضطراب في السلطات المركزية.
- مسألة شرف النسب بالسوس ، وكعادة المغاربة ، فرغم هيمنة الأصول الأمازيغية على معظم ساكنة المراكز السوسية ، فإن الشرفاء منهم حظوا بتبجيل خاص و مكانة لا تضاهى. لكن ما يحتاج إلى تدقيق أكبر هو تتبع علاقة السوسيين بالشرفاء في حالة تقلدهم لمسؤولية حكم الدولة السعدية ، وهل تتساوى نظرتهم للفقيه الشريف بنظرتهم إلى الحاكم الشريف ؟ وإن كان هناك اختلاف ، فما هي أسبابه و عواقبه ؟
- نفوذ الزوايا بالسوس على المستوى الروحي و السياسي ، رغم أنها ليست ميزة تنفرد بها المنطقة ، إلا أن المثير هو تحول السوس خلال الحقبة المدروسة إلى مركز لتخريج أقطاب التصوف أكثر من أي وقت مضى. هؤلاء الشيوخ الذين غذوا قبلة لأفواج الطلبة و المريدين. فما هو السر وراء هذا المد الصوفي ؟ وما هي تداعياته و مخلفاته ؟ ثم كيف يمكن تفسير نزوع بعض هذه الشخصيات الصوفية إلى الانخراط في العمل السياسي ، إن بتنظيم صفوف الجهاد ضد الغزو الإيبيري أو بتزعم تمردات ضد السلطة الحاكمة ؟ وإحجام أخرى واكتفائها بتربية وتعليم وإيواء الأتباع و اقتصارها على أعمال البر والإحسان.
- قضية علاقة السوسيين بالإيبيريين ، وما يرتبط بمسألة الحماية مع الطرف الإسباني خاصة ، في حاجة إلى تمحيص كبير. فمعاهدة بوطاط الغامضة المقاصد ، وردت مبتورة السياق ، متضاربة بنودها مع ما تلاها من وقائع. فما مدى مصداقية هذه المعاهدة ؟ وفي حالة الإيجاب ، ما هي دوافع الأطراف السوسية الموقعة ؟ و ما حدود الالتزام بمقتضياتها ؟
- مسألة الحكم المحلي كظاهرة مثيرة تكاد تنفرد بها المنطقة ، وتعود إلى أزمنة سابقة ، كما أنها ذائعة الانتشار في عدة مراكز من السوس. وعلى حد علمنا فإذا استثنينا تجربة ديوان سلا والرباط و القصبة الذي أنشأه الأندلسيون غداة ضعف الحكم السعدي ، فإننا لا نكاد نجد نظيرا لنمط الحكم التداولي بمدن السوس في مرحلة الفراغ السياسي خلال العصر الوطاسي. فما هي إذن جذور هذه التجربة ؟ و ما دوافعها و نتائجها ؟ ولماذا عجزت عن الامتداد إلى الإمارات المحلية و الدول المركزية ؟
- عوامل تحول دور المغرب الأقصى و منه السوس في حقبة الدراسة إلى مجال أكثر تأثرا بما يحيط به من تطورات ، بعدما كان في فترات سابقة ، خاصة إبان العصرين المرابطي والموحدي ، هو المؤثر في الأحداث من حوله. و لماذا استمر العجز عن استرجاع هذه المكانة قائما حتى بعد بناء دولة مركزية قوية في إحدى فترات الحكم السعدي ؟

صحيح أن المنصور أقدم على غزو السودان ، لكن لماذا عجز المغاربة عن استرجاع سبتة و تقبلوا الأمر الواقع في الأندلس ؟ واضح أيضا أن ميزان القوى العسكري صار يميل لصالح الممالك المسيحية على مستوى الأسطول و صناعة السلاح الناري ، ولكن لم بقي المغرب بمعزل عن هذه التحولات ولم يواكب ما تعاظم حوله من أخطار ؟

- مسألة الجهاد البحري في عرض السواحل السوسية والصحراوية تستحق الاهتمام لما يتوفر من إشارات مثيرة في الموضوع. فقد

أثبتت محاضر محاكم التفتيش البرتغالية إلمام أشخاص ينتمون إلى مناطق غير ساحلية بشؤون الملاحة البحرية ،وقد أقر المؤرخ البرتغالي فيكانيي بحقيقة جهاد أهل السوس البحري ضد البرتغاليين و الإسبان ، كما أحدثت حملة سنة ١٦١٨م "هزة عنيفة في أوساط هذه الجزر[الكناري] و شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت الهزة واضحة المعالم .... فقد وصلت إلى سواحل جزيرة لانزروتي Lanzarote خلال هذه العملية وحدها ستون سفينة شراعية يرأسها كل من المسمى تابان والمسمى سليمان. وقد نزل هناك ٥٠٠٠ محارب توجهوا مباشرة نحو مدينة تيگيس Tigis ، فهرب السكان إلى جزيرة فويرتوفونتورا Fuertaventura. تمكن المهاجمون من سجن ٩٠٠ مسيحي إسباني بعدما هدموا و أحرقوا منازل و كنائس تيگيس. ثم توجهوا بعد ذلك إلى گوميرا Gomera فغزوا و أحرقوا مدينة سان سيباستيان San sebastian التي غادروها متوجهين نحو جزيرة لابالما La Palma بميناء تازكوغت.... وقد كان من شأن المجابهة العنيفة أن صدتهم عن أهدافهم فعادوا إلى قواعدهم."

واضح إذن أن مثل هذه العمليات لا يمكن تنظيمها من فراغ ، لذلك وجب الكشف عمن يقف وراءها و ما يقترن بها قبل و بعد تنفيذها.

على المستوى الاقتصادي

- قضية التفاوت في المؤهلات الطبيعية بين صنفين من المراكز و الجهات داخل السوس. أحدهما يزخر بثروات مائية و زراعية وحيوانية متعددة ، يقابله صنف ثان يعاني من شح و ندرة هذه الموارد.فكيف تمكنت المراكز ذات الإمكانيات المتواضعة من تأمين حاجياتها و حفظ وجودها لزمن طويل ؟
- مسألة التجارة الصحراوية في القرنين الأولين للكشوفات الجغرافية وتحول السوس إلى أهم جهة مغربية تقوم بدور الوسيط في تصريف بضائعها ، تفرض التساؤل حول حدود صمودها في وجه منافسة الأساطيل الأروبية و نوع التغير الحاصل في بنيتها حجما و قيمة وتنظيما.
- قضية العلاقات التجارية الأروبية مع السوس بحاجة إلى تناول خاص يتتبع كل مراحلها وبنيتها ومحركاتها الأساسية.
- الملاحة المغربية بالسواحل السوسية والأطلسية عموما تعد من القضايا العالقة التي تنتظر من يكشف النقاب عن جوانب الغموض فيها. فالمؤشرات الدالة على قيام علاقات بحرية بين السودان و المغرب الأقصى في إحدى مراحل العصر الوسيط في حاجة إلى كشف حيثياتها ومداها وسر اختفائها التام والنهائي بعد ذلك.
- الأنشطة الصناعية و الحرفية بالمدن و المراكز السوسية لم تنل بعد الحظ الوافي من الدراسات الكفيلة بالإجابة عن مختلف الإشكالات المرتبطة بها.

على المستوى الاجتماعي

- ما تزال خصوصية التأثير المعقلي على منطقة السوس حبيسة الأحكام الجاهزة ، بالتركيز على الجوانب السلبية منها وتحميل القبائل العربية مسؤولية كل دمار أو خراب مع إغفال ما كان لهؤلاء من آثار إيجابية أيضا ، كمساهمتها في تعمير بعض المراكز وإنشاء أخرى جديدة. لذلك لا بد من عمل ينصف هذه الفئة.
- الوظائف التي قام بها الأسرى الأروبيون بالسوس هي الأخرى ما تزال بحاجة إلى من يضعها تحت مجهر البحث المتأني و الرزين.
- أدوار العبيد(البيض و السود) في المجتمع الحضري بالسوس تتطلب فحصا يتناولها من كل الجوانب.
- تاريخ ومكانة الحراطين في مدن ومراكز السوس ليست بالوضوح الذي من شأنه تبيين نوعية و حجم الأدوار التي أنيطت بهم و تفسير ذلك.
- حدود مساهمة الأندلسيين على قلتهم في إفادة السوس من الخبرات التي حملوها من موطنهم الأصلي هي الأخرى بحاجة إلى إثبات أو نفي.
- لازالت هناك بعض المواضع بكر ترتبط بالفئات المهمشة في الكتابات التاريخية ، وتحتاج إلى تناول مستفيض مثل النساء والأطفال: وضعيتهم بين باقي الشرائح الاجتماعية ، ومشاركتهم الإيجابية في صنع الأحداث ، والعبء الكبير الذي تحملوه على مر الأحقاب و العصور باعتبارهم أكبر ضحايا الأحداث التاريخية.
- الحركية و الدينامية البشرية بحواضر السوس وجدلية التنقل والاستقرار لدى أهلها لم تطرق من زاوية علاقة الحضارة بالبداوة و تأثير إحداهما على الأخرى.

على المستوى المعماري

- مسألة تأثير العمارة الإيبيرية في العمارة السوسية تفتقر إلى الأدلة الكافية وتحتاج إلى تقصّ أكبر من أجل البث فيها.
- العمارة السوسية غنية بزخارفها وعناصرها الفنية التي تستحق دراسة منفردة تحيط بالموضوع من جميع أطرافه.
- ظاهرة المدن المندرسة ذائعة بكل جهات السوس ، نذكر منها على سبيل المثال: إيجلي .نول .تكاوصت .تييوت .تيدسي... مما يقتضي البحث عن أسباب هذا الاندراس و إمكانيات تحديد مواضع هذه المدن والسبل الكفيلة بنفض تراب النسيان عنها وعن أنقاضها.
- قضية حفظ التراث المحلي ، القائم من الضياع ، وإنقاذ المتلاشي والمهمل. فالسوس حافلة بالعديد من المواقع الأثرية إلا أن المصنّف منها ما زال قليلا جدا بالنظر لما هو موجود.
- مسألة إنجاز مسح أركيولوجي لمنطقة السوس و تنظيم عمليات تنقيب أثري واسعة تعد مطلبا ملحا بالنظر إلى العدد الهائل من المواقع الأثرية التي تزخر بها المنطقة.

و في الختام فإن العناصر أعلاه ليست هي كل ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة، وإنما تمثل أهم ما استدعت الضرورة استحضاره. كما تبقى هذه الأطروحة مجرد مساهمة متواضعة في دراسة القضايا الحضرية التاريخية بإحدى جهات المغرب الأقصى.